المقدمة

الحمد لله حمدَ الفَرِحينَ بعبوديتهم لله ربِّ العالمين وحده لا شريك له ، المنعَّمِينَ في مِنَنِ اصطفائهم بالإسلام ، العاجزينَ بقلوبهم - قبل ألسنتهم - عن تحقيق شيءٍ من واجب الحمد ، الراجينَ من ربِّهم أن يجبر نَقْصَ حمدِهم بعفوه ورحمته ، الواثقين بواسعِ كرمه ﷻ وعظيمِ جوده ﷺ ورحمةِ نظره ﷻ وكمالِ عفوه ومغفرته ﷻ.

فاللهم تَقَبّلْ حمدي على تقصيرِه ، واجعله في رضاك عني برحمتك ، واكسُني به حُلَلَ الرضوان والإنعام في هذه الفانية وفي دار المقام .

فأنت - إلهي - أعظمُ من سُئل ، وأجودُ من أَعطى ، وأنت - ربي - مَن لا حدَّ لخزائن مُلْكِه ، فلا تَنْقُصُ بالعطاء خزائنُه شيئًا ، وكيف تنقص ؟! وهي خزائنُ لا حدَّ لها ولا نهاية ، تكون بـ(كُن) ، وتُوجَدُ بإرادة ربوبيتك ومُلك سلطانك الأزلي ، يا مالكَ الـمُلْك ، يا متفرِّد السلطان ، يا قديم الإحسان ، يا غاية الإنعام !

وأنا أفقرُ الفقراء إليك ، وأذلُّ العبيد على عتبة بابك ، فبالفقر إليك أكون أغنى الخلق بك ، وبالذل إليك أكون بك أعزَّ من كل عزيز ، فأنَّىٰ لا أفرح بأن هديتني إلى التعبُّد لك والخضوع لربوبيتك وإسلام القلب لألوهيتك ؟!

«اللهم تَقَبّلْ حمدي» : دعاءٌ من عبدك ، بلا تطويلِ عبارة ، ولا تزويقِ إشارة ، وبلا مَلَقٍ قبولُك عنه غنيّ ، فغاية الافتقار إليك ربي تشفع لعبدك عندك . جئتُك ساجدَ القلب ، ذليلَ الفؤاد ، مصفودَ الروح بالعبودية لك ، أرجو رحمتك ، وأخشى عذابك ، وأخجل من دعواي محبتك ، وأنا في محبتك أحيا وبها أنعَم .

«اللهم تَقَبّلْ حمدي» : كما تُحبُّ أن تُحمَد ، واذْخُرْهُ في بِيضِ الصحائف ، وثَقِّل به

موازينَها عندك ، فإنه إن قُبل عندك : فقد ضمنتُ خلودَ الرضا وجنةَ الخلود!

ثم صلِّ اللهم وسلِّم وبارك على مصطفاك الأحبِّ لديك ، الأكرمِ إليك ، الأفضلِ عندك : أتمَّ صلاةٍ وسلامٍ وبركات ، على أنه ﷺ بجاهه عندك قد بلغ ما لم يبلغه أحدٌ من خلقك سواه ، فأغنيتَه - يا ربُّ - بمحض كرامتك ، وبمقعده عندك ، وبما أفضتَ به عليه ، وبمقامه المحمود : عن صلاتي وتسليمي وتبريكاتي عليه ﷺ . لكنني - يا ربُّ - أنا المحتاج إلى أن أضرع إليك بالصلاة والسلام والتبريك عليه . مع أن إيماني بربوبيتك وإلهيتك تعني أنني أُومن وأتيقّن بأن جاهَ حبيبِك المصطفى عندك وقَدْرَه الكبيرَ لديك الذي رفعتَه به على كلِّ خَلْقِك : ليس لما تشاؤه منه نهاية ، ولا لما ترضاه له من الكرامة والعُلوِّ حدٌّ غاية.

فاللهم أدِمْ وأعظِم من صلاتك وسلامك وبركاتك على الحبيب المصطفى والنبي المجتبى والرسول الخاتم ، وعلى أزواجه أمهات المؤمنين ، وعلى ذريته إلى يوم الدين.

أما بعد :

فإن الإيمان بنبوة النبي ﷺ هو الشطر الثاني من شهادة الحق التي لا نجاة بغير الإيمان اليقيني بشطريها : شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمّدًا رسولُ الله . وهذا ما أوجب أن تكون دلائل نبوته ﷺ دلائلَ يقينيةً ، لكي تُوصل إلى هذا اليقينِ الواجبِ والمشروطِ لصحة الإيمان .

ولذلك فقد كتب أئمتُنا وعلماءُ أُمّتِنا كُتُبًا كثيرةً وعَقَدُوا مباحثَ طويلةً في دلائل النبوة ، وتنوعت طرائقُ تأليفهم في ذلك ، وتعدّدت وجوهُ تناولهم له ، واستطاعوا أن يقدموا الأدلة على صحة نبوة النبي ﷺ بأحسن طريقةٍ وأقومِ منهج . لكنهم كانوا يخاطبون أهل زمانهم بما لديهم من معارف ، وبحسب ما تحتاجه أفهامُ المخاطَبين في عصرهم ، وأجابوا عن كل إشكال كان يُطرح ، وسَدُّوا كلَّ ثغرةٍ تُوُهِّمت في استدلالهم ، ورَدُّوا كلَّ شُبهةٍ أثارها ذلك الاستدلالُ بلغةِ عصرِهم وحاجتِه ، فجزاهم الله تعالى عن الإسلام وعلومه خير الجزاء .

فلما أن بلغنا نحن هذا العصر ، وكان أكثر أبناء أُمتنا يجهلون تراث أُمّتهم ، وبعض

جهلهم به جهلُ معرفةٍ واطلاع ، وبعضه جهلُ عَجْزٍ عن إدراكه وفهمه ، بسبب ما حصل بيننا وبين تراثنا من قطيعةٍ تعبيرية واصطلاحية وأسلوبية ، صار لا بُدّ من إعادة عرضٍ لبعض تلك الجهود في الدلائل النبوية ، بطريقةٍ تقرّبها من عموم المسلمين ، وتُيسِّرُ فهمها لهم ، وتخاطبهم بلغة عصرهم وأساليبه ، بل تحبِّبهم في معرفة ذلك ، وتُشوِّقُهم إليه ، وتُغريهم به ؛ لأننا في زمن لا تَـحْكُمُ غالبَ الناس فيه إلا المتعةُ واللذة ، فلا بد أن نحرص على تقريب علومنا إلى أبناء أمتنا بلغة يفهمونها ، وبأسلوب يشوّقهم إلى معرفتها ، بلا إخلالٍ بالحقيقة العلمية ، ولا تسخيفٍ للمعارف الثقيلة[1].

فمثلًا : لم يعد عامة الكلام عن الإعجاز البلاغي في القرآن الكريم الذي نجده في أجلّ كتبه التراثية كـ(دلائل الإعجاز) و(أسرار البلاغة) لعبد القاهر الجرجاني (ت471هـ) ، ولا (إعجاز القرآن) للباقلاني (ت403هـ) ونحوها من كتب الإعجاز البلاغي بالكافية لغالب المسلمين ليفهموا هذا الدليل ؛ لشدة عمقه في علوم البلاغة واللغة ، ولكونه يحتاج مَلَكاتٍ لغويةً وذائقةً أدبيةً تُمكِّنُ من معرفة تلك الدلالات البلاغية العميقة ، وهي ذائقةٌ ومَلَكاتٌ شِبْهُ معدومةٍ عند عامة طلاب العلم الشرعي فضلا عن عموم الناس من العرب ، فضلاً عن غير العرب . لذلك كان لا بُدَّ من إثبات الإعجاز البلاغي بطريقةٍ تحقق قيام الحجة على هؤلاء بصحة النبوة ، فإن أمكن ذلك (وهو ممكن) ، يجب عدم الاكتفاء لإثبات الإعجاز البلاغي بما ذكره الأئمة في كُتبِ الإعجاز وكُتبِ البلاغة لإثبات النبوة ؛ لأنه لن يثبتها عند هؤلاء ما داموا لم يكونوا من أهل التخصص وكمال التذوّق .

---

(1) قال الله تعالى ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً﴾ [المزمل : 5] ، فهو قولٌ ثقيل محمله ، ثقيلٌ العملُ بحدوده وفرائضه . مع قوله تعالى ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾[القمر : 17] ، مما يعني أن تيسير المحمول لا ينافي ثقله . فتيسير الثقيل لا يكون بتخفيفه ، وإنما في بيان كيفية حمله التي تُعِينُ على حمل الثقيل .
قال القاضي عبد الحق ابنُ عطية (ت542هـ) : «كان ابن مسعود رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ يقول : «أُنزل عليهم القرآن ليعملوا به ، فاتّخذوا دَرْسَه عملا ، إن أحدهم ليتلو القرآن من فاتحته إلى خاتمته ما يُسقط منه حرفًا ، وقد أسقط العمل به» . (قال القاضي عبد الحق) : قال الله تعالى : ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ ، وقال تعالى :﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾ ، أي : عِلْمُ معانيه والعملُ به والقيامُ بحقوقه ثقيلٌ ، فمال الناس إلى الميسَّر ، وتركوا الثقيل ، وهو المطلوب منهم». المحرَّر الوجيز لابن عطية – وزارة الأوقاف القطرية . سنة : 1437هـ -(152/1).

فإذا ذهبنا إلى الوجه الأكثر شيوعًا من دلائل النبوة في الكُتب التراثية الموسومة بـ(دلائل النبوة) ، وهو وجهُ المعجزات الحسية من خوارق العادات الواردة في روايات السنة[1] ، وأردناها دليلًا على صحة النبوة حتى عند المتشكِّك في ثُبوتها والمكذِّب لوقوعها ، بسبب أنها ظنية الثبوت في آحادها على أقصى تقدير عنده ، والظني لا يُثبت اليقيني : فلا بُد من الاستجابة لهذا المطلب العقلي الصحيح ، لكي نُصَحِّحَ الاستدلالَ بها .

وقد تناول علماؤنا الأوّلون هذه المسألة ، واستدلوا لتلك الدلائل الخبرية بما يصحِّحُ الاحتجاج بها عقلًا ، كما سيأتي بيانه[2].

ومما استجدَّ في الاستدلال للنبوة أيضًا غير ما سبق :

- استحداث شُبهٍ جديدة ، أو يُتوهَّم أنها جديدة ، تُشكِّك أصحابها في دلائل النبوة . فهي تُوجب عدمَ التغافل عنها ، بل تحتاج ردودًا علميةً عليها ، تزيل الشُّبهة ، وتحقق اليقينَ من الدلائل .

- وظهور وجوه إعجاز جديدة أو ادّعاءُ وجودها ، وهذه الاستدلالات تحتاج إلى تصحيح الاستدلال بها إن كانت تقبل التصحيح[3] .

وهذه مجرد أمثلة تبيِّن مشكلة هذا البحث ، والتي هي : كيف نجعل دلائل النبوة دلائلَ عقلية ، كما يجب أن تكون .

فالمقصود من هذا البحث : هو بيانُ الطريقة التي يمكن أن نقدِّم بها للناس دلائلَ النبوة باختلاف وجوهها باستدلالٍ عقليٍّ يُصحِّحُ الاستدلالَ بها على النبوة للمؤمن وغير المؤمن ، وبيانُ جهود علمائنا المتقدمين والباحثين المعاصرين في تحرير هذا التقديم ، والتنبيهُ على طريقته ، وضَرْبُ نماذجَ منه للتمثيل ، لا للحصر .

ومن مقاصد هذا البحث أيضًا : اقتراحُ مشاريع لخدمة هذا الباب العظيم ، أرى أنه لا بد من قيام الأُمة بها ؛ في سبيل أداءِ واجبها في الشهادة على الناس ، بإقامة الحجة

(1) كحنين الجذع ونبوع الماء من بين الأصابع .
(2) انظر (للمؤلف).
(3) كما سيأتي التنبيه عليه في مبحث (الإعجاز العلمي).

عليهم ، في دعوتهم إلى دين الله تعالى : ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَٰكُمۡ أُمَّةٗ وَسَطٗا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيۡكُمۡ شَهِيدٗاۗ ﴾[البقرة : 143] ، ﴿هُوَ ٱجۡتَبَىٰكُمۡ وَمَا جَعَلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلدِّينِ مِنۡ حَرَجٖۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمۡ إِبۡرَٰهِيمَۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ مِن قَبۡلُ وَفِي هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيۡكُمۡ وَتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِۚ﴾[الحج : 78].

ولذلك سوف أتناول هذا الموضوع تحت فصلين :

الفصل الأول : التمهيدي :

ويتضمن ثلاثة مباحث :

- المبحث الأول : تعريف الدلائل العقلية على النبوة ، وقد تضمن مسألتين :
  - تعريف دلائل النبوة .
  - تعريف الدلائل العقلية على النبوة .
- المبحث الثاني : تنبيهات مهمة حول الدلائل العقلية ، وقد تضمن ثلاث مسائل :
  - أولا : الدلائل العقلية منها ما هو قطعي ، ومنها ما هو ظني بانفراده .
  - ثانيا : الدلائل العقلية اليقينية كلها لا تفيد اليقين إلا بالاكتساب والنظر ، ليس منها شيءٌ ضروري لا يحتاج إلى النظر .
  - ثالثًا : لا يقدح في يقينيةِ دليلٍ أن غيره أعلى رُتبةً منه في درجات اليقين.
- المبحث الثالث : أهمية الدلائل العقلية على النبوة .

الفصل الثاني : وجوه الدلائل العقلية ونماذج لها :

- المبحث الأول : الإعجاز اللغوي في القرآن الكريم ، وله وجوه ، منها :
  - البلاغة القرآنية .
  - جَـمْعُه المعاني الكثيرة في الألفاظ اليسيرة (جوامعُ كَلِمِه).
  - ظواهر لغوية قرآنية معجزة .
  - التباين الكبير بين أسلوب القرآن وبلاغته وأسلوب الحديث النبوي وبلاغته.

المبحث الثاني : الإخبار بالمغيبات الماضية (الإعجاز التاريخي) والمستقبلية (النبوءات المتحققة).

- المبحث الثالث : الإعجاز العلمي .

- المبحث الرابع : إعجازُ الإحكامِ في الأحكام الإسلامية (الإعجاز التشريعي).

- المبحث الخامس : دلائل التحليل الذاتي المعنوي للقرآن الكريم الدالة على صدق النبوة .

- المبحث السادس : السيرة النبوية وحياته ﷺ وشخصيته ﷺ وكريم شمائله ﷺ.

- المبحث السابع : التاريخ الإسلامي بحوادثه وحضارته .

- المبحث الثامن : البشارات بالنبي ﷺ في كتب الأنبياء السابقين .

- المبحث التاسع : الخوارق الحسيّة الدالة على نبوة النبي ﷺ .

وأخيرًا أنبِّهُ : بأن صَرْحَ إثبات النبوة صرْحٌ عظيمٌ يَضُمُّ أهلَ الإسلام قاطبةً ، فمن أراد أن يَتَطفّلَ على هذا الصَّرْحِ من خَوْخَةِ مذهبيّته الضيقةِ وأن يَنْفُذَ إليه من كُوّةِ معاركه العقائدية بين أهل القبلة[1] : فسوف يَصُدُّ الناسَ عن فَسيحِ أبوابه ، ناقلًا معركته العقديّة إلى ساحةٍ غير ساحتها ، ولذلك سوف يُصاوِلُ في تلك الساحة أشباحَ الخصوم وأوهامَ الأعداء ، فلن يرجع من تلك المعركة الوهمية إلا بهزيمة التعب بلا طائل .

---

(1) كمن يجعل من (دلائل النبوة) إذا خاض فيها مدخلاً لنصرة مذهبه الخاصِّ هدفًا أصيلاً ، أو هدفا ثانيًا عَرَضِيًّا لا ينفكُّ يحضر في كلامه فتراه إذا حكى قولا تتابع على ذكره عامةُ علماء المسلمين لا ينقله إلا عن ابن تيمية ومن وافقه من مدرسته ، وكأن ابن تيمية ومقلّديه متفرّدون بذلك القول ، مع أن ابن تيمية مسبوقٌ إليه من غيره منذ قرونٍ قبله (كما ستراه واقعًا في هذا الكتاب). وهذه خيانةٌ علمية ، إذا تمّت من فاعلها بعلْمٍ .
وتراه أيضًا في سانحة أُخرى : ينسبُ لمخالفيه في تلك المسألة ما لم يقولوه افتراءً عليهم أو فهمًا خاطئًا عليهم حمله عليه سوءُ ظنِّه وتَحامُلُ البغي ، ليدّعي - في نهاية هذه الغَدْرة - تَفَرُّدَ مذهبه العقدي بالحق.
أو تراه ينقل عن واحد من مخالفي مدرسته (من الأشعرية مثلاً) ما خُولف فيه من علماء الأشعرية أنفسهم : ليُوهِمَ أنه قولُ الأشعرية كلِّهم ، وأنهم قد ضلّوا جميعًا في تلك المسألة ! وهذا كله غَدَرانٌ وتزوير ، مقطوعٌ بحُرمته شرعًا ، ولا يقع مثلُه إلا ممن عَلِمَ أن فكرته لا تنتصر إلا بالباطل !! ثم على هذه السوءة الظاهرة : تراه يريد أن ينتصر للنبي ﷺ بهذا الباطل ، فأنّىٰ يُوفَّق إليه ؟!

وسيظن العاجزون : أنني بهذا التنبيه قد وقعتُ فيما عِبْتُ !

وسأقول لهم - إن عَجَزُوا عن التفريق بين التحذيرِ من الخطأِ والوُقُوعِ فيه - : ستجدون في هذا الكتاب الاستشهادَ بابن تيمية مع القاضي عبد الجبار وابن الملاحمي وغيرهما (من المعتزلة) مع أبي حاتم (الإسماعيلي) مع العامري (الفيلسوف) مع الشريف المرتضى وأبي جعفر الطوسي وغيرهما (من الإمامية) مع الهاروني (الزَّيْدي) مع الجويني والغزالي والرازي والسنوسي وغيرهم (من الأشعرية) مع أبي منصور الماتريدي وأبي المعين النسفي وابن الهمام وغيرهم (من الماتُرِيديّة).

وإنما أردتُ بهذا التنبيه : بيانَ ضرورةَ تنزيهِ الأغراضِ الشريفة العاليةِ عن كل شيءٍ أجنبيٍّ عنها ، تنزيهًا تامًّا : لا يترك التصريحَ ليأخذ بالتلميح ، ولا المباشَرَةَ إلى غير المباشرة ؛ فالتذاكي لا يُحتالُ به على الحق ، والموفَّق يعلم : أن كلَّ محاولةِ نَصْرٍ للقضية الخاسرة بالقضية المنتصرة سيكون خسارةً للقضيّتين معًا !![1]

فأسأل الله التوفيق في بيان منهج إبراز دلائل النبوة بمنهجٍ استدلاليٍّ عقليٍّ ، يُقيم الحجة على المؤمن وعلى غير المؤمن بأن سيدَنا محمدَ بنَ عبد الله رسولُ الله وخاتمُ النبيين ﷺ المبعوثُ رحمةً للعالمين .

(1) هذا التنبيه جزءٌ من حاشية ستأتي في أوائل الكتاب ، وجدتُ أن إيرادها في المقدّمة مهمٌّ ؛ لأنها قاعدةٌ أخلاقية وعلمية لهذا الموضوع .